

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. أما بعد:

فإن المتأمل اليوم في عصرنا الحاضر وما فيه من الصراعات، يجد أن الصراع بين الحق والباطل قد بلغ أشده، وأن ملل الكفر قد جمعت كل إمكانياتها ضد عدو واحد، ألا وهو الإسلام ودعاته الصادقون، الذين يصفونهم تارة بالمتطرفين وتارة بالأصوليين وتارة بالإرهابيين.

وإن المراقب للأحداث التي ظهرت في العقود الأخيرة ليرى أنها تتسم بسمتين اثنتين:

١ - التسارع الشديد والمفاجآت التي تصحبها، إلى حد أن المتابع لهذه الأحداث لا يفتأ يسمع بحدث ويبحث عن الموقف منه، إلا وتفجؤه أحداث أخرى، تنسيه أو تشغله عن الحدث الأول، كما تتسم بضخامتها وشدة آلامها.

عن يحيى بن وثاب قال: قال حذيفة رضي الله عنه: «والله لا يأتيهم أمرٌ يضجون منه؛ إلاَّ أردفهم أمرٌ يُشغلهم عنه»^(١).

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٦٢) ..

٢- إن أغلب هذه الأحداث - إن لم نقل كلها - تقع في المنطقة الإسلامية والمسلمون فيها هم المستهدفون، وفي ظل هذه الأحداث يجب على دعاة الحق والمجاهدين في سبيل الله أن يقفوا طويلاً مع كتاب الله ﷻ وما تضمن من الهدى والنور، ومن ذلك ما تضمنه من السنن الربانية المستمدة من دعوة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وذلك لأن في معرفتها والسير على هداها أخذاً بأسباب النصر والتمكين والفلاح، ونجاة مما وقع فيه الغير من تحبط وشقاء، وفي الغفلة عنها تفريط في الأخذ بأسباب النجاة، وحرمان التوفيق في النظر الصحيح للأحداث والمواقف، وليس المقصود هنا التفصيل في موضوع السنن الربانية فهذا له مقام آخر، وإنما المقصود هو الاستضاءة بهذه السنن في الوصول إلى الموقف الحق، الذي نحسب أنه يرضي الله ﷻ، وذلك في الأحداث الساخنة التي تدور رحاها اليوم في حرب الإسلام وأهله.

وأكتفي هنا بالتنبيه على سنة واحدة من سنن الله تعالى، يجب التذكير بها ونحن في خضم هذه الأحداث وبفهم هذه السنة يزول الاستغراب مما يحدث، ونتمكن من الفهم الصحيح لحقيقة هذه الهجمات المتلاحقة من أعداء الإسلام ودوافعها وحكمة الله ﷻ في إيجادها؛ لأن من أسأئه سبحانه: العليم الحكيم، ومن آثار هذين الاسمين الكريمين اليقين بأن أي شيء يحدث في ملكه سبحانه، فإنما هو بعلم الله تعالى وإرادته وحكمته البالغة. وهذه السنة التي أعنيها هنا، والتي هي مقتضى حكمته سبحانه وعلمه هي: سنة المدافعة والصراع بين الحق والباطل:

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ
وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ
مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ويقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ
يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال ذات
يوم في خطبته: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي
هَذَا؛ كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلِّهِمْ، وَإِنَّهُمْ
أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ،
وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ،
فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ
لِابْتِلَاكِ وَأَبْتِلَاكِ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُؤُهُ نَائِمًا
وَيَقْظَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذَا يَنْلَغُوا رَأْسِي
فَيَدْعُوهُ خُبْرَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْرُهُمْ نُغْرَكَ، وَأَنْفِقْ
فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ
عَصَاكَ» الحديث^(١).

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

في هذه الآيات والحديث أبلغ دليل على أن الصراع حتمي بين الحق وأهله من جهة، والباطل وأهله من جهة أخرى، هذه سنة إلهية لا تتخلف، ووقائع التاريخ القديم والحديث تشهد على ذلك، وهذه المدافعة وهذا الصراع بين الحق والباطل إن هو إلا مقتضى علمه سبحانه وحكمته وعزته ورحمته ولطفه، وهو لصالح البشرية وإنقاذها من فساد المبطلين، ولذلك ختم الله ﷻ آية المدافعة في سورة البقرة، بقوله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، حيث لم يجعل الباطل وأهله ينفردون بالناس، بل قيض الله له الحق وأهله يدمغونه حتى يزهق، فالله تعالى يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

إن الذين يطمعون في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة من دون هذه السنة - أعني سنة المدافعة مع الباطل وأهل الفساد - إنهم يتكبدون منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ﷻ الذي ارتضاه واختاره لهم، وإن الذين يؤثرون السلامة والخوف من عناء المدافعة مع الفساد وأهله، إنهم بهذا التصرف لا يسلمون من العناء والمشقة، بل إنهم يقعون في مشقة أعظم وعناء أكبر يقاسونه في دينهم، وأنفسهم، وأعراضهم، وأموالهم، وهذه هي ضريبة القعود عن مدافعة الباطل، وإيثار الحياة الدنيا.

والمدافعة بين الحق والباطل تأخذ صوراً متعددة: فبيان الحق وإزالة الشبه ورفع اللبس عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدافعة، وبيان سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين مدافعة، والصبر

والثبات على ابتلاء الأعداء من الكفرة والظلمة مدافعة، ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله ﷻ على رأس وذروة هذا المدافعات؛ لكف شر الكفار وفسادهم عن ديار المسلمين ودينهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

واليوم لم يعد خافياً على كل مسلم ما تتعرض له بلدان المسلمين قاطبة من غزو سافر وحرب شرسة على مختلف الأصعدة، وذلك من قبل أعدائها الكفرة، وأذئابهم المنافقين، فعلى الصعيد العسكري تروح بعض بلدان المسلمين تحت الاحتلال العسكري لجيوش الكفرة المعتدين، التي غزت أهل هذه البلدان في عقر دارهم كما هي الحال في أفغانستان والشيشان والعراق وفلسطين، وسوريا، وعلى صعيد الحرب على الدين والأخلاق، وإثارة الشبهات والشهوات ولبس الحق بالباطل فإن ذلك لم يسلم منه بلد من بلدان المسلمين.

وقد تقرر عند أهل العلم أن الجهاد يتعين على المسلمين إذا غزاهم الكفار في عقر دارهم، ويصبح واجباً على كل مسلم قادر أن يشارك في دفع الصائل عن بلده بكل ممكن، فإن كان الغزو عسكرياً وبالسلاح وجب رده بالقوة الممكنة والسلاح، وإذا كان الغزو بالسلاح الكلمة والكتاب والمجلة والوسائل الإعلامية الخبيثة بأنواعها المقروءة والمسموعة والمشاهدة منها التي يباشر الكفار بعضها وينيون إخوانهم من المنافقين في بعضها، فإن الجهاد بالبيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمدافعة والتحصيل يصبح واجباً عينياً على كل قادر من المسلمين كل بحسبه.

وحينما نربط هذه السنة ومقتضى أسماء الله الحسنى بهذه الأحداث التي تزامنت وتلاحقت وتشابهت قلوب أصحابها في الهجوم على دين الإسلام وأهله وبلدانه، تتضح لنا هذه السنة بجلاء، وحينئذ يرتفع الاستغراب مما يقوم به الكفار من هجوم وافتراء على دين الإسلام، ويشمر المسلم للدخول في الصراع ضد أعداء الله تعالى بما يستطيع من نفسه وماله ولسانه وقلمه. قال ﷺ: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»^(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب والدعوة والحجة والبيان والرأي والتدبير والصناعة، فيجب بغاية ما يمكنه)^(٢).

وإن التقاعس أو التشاغل أو التخاذل من القادرين على هذه المدافعات من ضروب الجهاد يخشى أن يكون من جنس التولي يوم الزحف، وتقديماً للعالم الفانية على محبة الله ﷻ ورسوله والجهاد في سبيله -تعالى-، ولا يبعد أن يكون من المعنيين بقوله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

(١) رواه النسائي (٣٠٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣٠٩٠).

(٢) «الاختيارات الفقهية» (ص ٤٤٧).

هذا وإن كانت هذه الآيات في جهاد الكفار في ساحات القتال فإن ذلك لا يمنع من أن تشمل أيضاً القاعدين عن جهاد الكفار والمنافقين بالبيان والمدافعة لأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الرديئة، والوقوف أمام وسائلهم ومخططاتهم المختلفة وتحصين الأمة وتحذيرها منها، فقد قال الله ﷻ أمراً نبيه محمداً ﷺ في سورة مكية بمجاهدة الكفار بالقرآن قبل فرض الجهاد عليهم بالقتال؛ وذلك في سورة الفرقان، حيث يقول الله ﷻ: ﴿فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

ويحسن في هذه المقدمة التأكيد والتذكير بالأصل السادس من أصول الإيمان، ألا وهو الإيمان بالقدر خيره وشره، وبيان أركانه ومراتبه ووسطية أهل السنة والجماعة فيه بين القدرية والجبرية.

إن من أصول الإيمان التي لا يصح إيمان عبد إلا بالإيمان بها، الإيمان بالقضاء والقدر، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، وذلك في قوله ﷺ في حديث جبريل الطويل: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورأسه، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١). وللايمان بالقدر أربع مراتب: الأولى: الإيمان بأن الله ﷻ بكل شيء عليم، عالم ما كان وما يكون وكيف يكون بعلمه الأزلي الأبدي، فلا يتجدد له علم بعد جهل، ولا يلحقه نسيان بعد علم.

الثانية: الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة. قال الله تعالى عن المرتبتين السابقتين: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

(١) «صحيح مسلم» (٨).

الثالثة: الإيمان بأن الله ﷻ قد شاء كل ما في السموات والأرض، لا يكون شيء إلا بمشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء وموجده.

وهذه المراتب الأربع شاملة لكل ما خلق الله ﷻ. ومن ذلك أفعال العباد. فكل ما يقوم به العباد من أقوال وأفعال أو تروك، وما يجري في ملكوت السموات والأرض فهي معلومة لله تعالى مكتوبة عنده، والله تعالى قد شاءها وخلقها، وهذه عقيدة السلف الصالح الذين هم وسط بين القدرية الذين ينفون خلق الله لأفعال العباد، ويقولون: إن العبد يخلق أفعال نفسه، وبين الجبرية الذين يقولون بأن العبد مجبور على أفعاله وليس له فيها اختيار، قال الله تعالى: ﴿لَمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمُ الْوَلَكَانَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ومن ذلك عنوان هذه الرسالة المأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ومشيئة الله تعالى صادرة عن علمه وحكمته وعدله وعزته ورحمته، بل إن الخلق كله والأمر كله هو مقتضى أسماء الله ﷻ الحسنى، وإن ظهر في بعض مفعولاته من شر تكرهه النفوس، فإن فيه الرحمة والحكمة والعدل، فنفس قضاء الله تعالى ليس فيه شر أبداً؛ لأنه صادر عن عدل ورحمة وعزة

وعلم وحكمة، وإنما يكون الشر من مقضياته لقوله ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١). وقوله ﷺ: «وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ»^(٢)، ومع ذلك فإن الشر في المقضيات ليس شراً خالصاً، بل هو شر من وجه وخير من وجه آخر، أو شر في محله خير في محل آخر.

والمقصود من هذه المقدمة التي لا بد منها الدخول منها إلى موضوع هذه الرسالة، وهو بيان أن ما يجري اليوم من أحداث مؤلمة ونوازل عظيمة في بلدان المسلمين، إنما هي بعلم الله ﷻ وكتابته لها ومشيتته وخلقها لها، وله سبحانه الحكمة البالغة في خلقه وأمره، ومن ذلك ما نشهده من صراع بين الحق والباطل، وما تمخض عن ذلك من آلام وآمال وأحداث ونوازل.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (وأسماءه الحسنی تقتضي آثارها، وتستلزمها استلزام المقتضي الموجب لموجبه ومقتضاه، فلا بد من ظهور آثارها في الوجود، فإن من أسمائه: الخلاق المقتضي لوجود الخلق، ومن أسمائه الرزاق المقتضي لوجود الرزق والمرزوق، وكذلك الغفار والتواب والحكيم والعفو، وكذلك الرحمن الرحيم، وكذلك الحكم العدل، إلى سائر الأسماء، ومنها الحكيم المستلزم لظهور حكمته في الوجود، والوجود متضمن لخلق وأمره، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فخلق وأمره صدر عن حكمته وعلمه، وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره، فمصدر الخلق والأمر عن هذين الاسمين

(١) «صحيح مسلم» (٧٧١).

(٢) رواه أبو داود كتاب الوتر (١٤٢٥)، والترمذي أبواب الوتر وصححه الألباني.

المتضمنين لهاتين الصفتين، ولهذا يقرن -سبحانه- بينهما عند ذكر إنزال كتابه، وعند ذكر ملكه وربوبيته، إذ هما مصدر الخلق والأمر^(١).

ومشيئة الله ﷻ صادرة عن حكمة بالغة وعلم شامل، والعارفون لربهم سبحانه ولأسمائه الحسنی وصفاته العلا يوقنون بذلك، ولذا فهم يحسنون الظن برهم ويحمدونه على كل ما يقدره، ويوقنون بأن أسمائه وصفاته وأفعاله كلها حسنى، ممثلين لأوامره الشرعية مجتنبين لما ينهاهم عنه، وذلك لكونها من الأسباب الشرعية التي أمرهم الله بها لجلب خيري الدنيا والآخرة، ودفع شري الدنيا والآخرة.

ولبيان هذه المعاني العظيمة التي قد يجهلها أو يغفل عنها كثير من المسلمين، أكتب هذه الرسالة الموسومة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ لتوضح هذه المسلمات، ولا سيما في ظل الأحداث والنوازل التي تعيشها أمتنا المسلمة، والتي كادت أن تعصف برياحها كثير من القلوب، وكادت أن تزل بها كثير من الأقدام، ولو شاء الله ﷻ ما أوجدها، ولكنها مقتضى حكمة الله ﷻ وعلمه وعزته ولطفه ورحمته. ولكي تتضح أهمية هذا الموضوع أذكر فيما يلي بعض الأمور التي دفعت إلى كتابة هذه الرسالة:

الأمر الأول: ما تشهده بلدان المسلمين من حوادث جسيمة ومحن شديدة وغزو مكثف من أعداء الدين من الكفار والمنافقين آلت ببعض المسلمين إلى حالة من اليأس والإحباط أثار في النفوس وساوس وشبهات وتساؤلات مفادها: ألسنا مسلمين؟ أليس أعداؤنا هم أعداء الله من

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٥٦٤).

الكفار والمنافقين؟ أليس الله على كل شيء قدير؟ فلماذا لا تنتصر عليهم؟ ولماذا يمكن لهم علينا؟ وغير ذلك من السؤالات التي تنم عن خلل في الفهم وضعف إيمان، وإساءة ظن بوعده الله ﷻ. وهذه التساؤلات: إما في الضمير، أو تظهر على الألسن.

ومنشأ مثل هذه الظنون إنما هو الجهل بالله ﷻ والجهل بأسماؤه الحسنی ومعانيها وآثارها، والجهل بسنن الله ﷻ في التغير والهزيمة والنصر، وفي تصريف الأحداث، فلعل في هذه الرسالة إسهاماً في كشف الشبهات، وبيان الحق والوقوف فيها على بيان التفسير الشرعي لهذه الأحداث والموقف منها.

الأمر الثاني: الحاجة إلى بيان الفرق بين إرادة الله ﷻ الكونية القدرية وإرادته الدينية الشرعية، وقد سبق بيان أن من أصول العقيدة الإيمان بالقدر، وأن شيئاً لا يكون في ملك الله ﷻ إلا بعلمه وإرادته وإيجاده وحكمته، ولكن من هذه المقضيات ما يريده سبحانه كوناً وقدرًا لحكمة بالغة، وإن كان لا يرضاه ولا يريده ديناً وشرعاً، بل أمر بتجنبه ومدافعتة ديناً وشرعاً، كما هو الحاصل اليوم من نشر للكفر وصد عن سبيل الله ﷻ، وفشو للظلم والعدوان، فقد أراد الله ﷻ ذلك كوناً وقدرًا لحكمة الابتلاء، ولكنه أراد ديناً وشرعاً اجتناب ذلك ومدافعتة ومجاهدته، قال الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلام جميل في تجلية هذه الحقيقة أسوقه بشيء من الاختصار. قال رحمه الله: (فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمراً لا يرضاه ولا يحبّه؟ وكيف يشاؤه ويُكُونه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكرهيته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم.

فاعلم أن «المراد» نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير، فهو مراد، إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته. وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده. فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، ومراد له من حيث إفضائه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران: بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان، لا اختلاف متعلقهما.

الأمر الثالث: بيان الموقف الشرعي إزاء هذه الأحداث والفتن، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن تجاهها حتى لا يسقط في الابتلاء، وما هو المطلوب اتخاذه شرعاً من المواقف والأعمال، وذلك في ضوء السنن الربانية في تفسير الأحداث؟ ويقابل ذلك ذكر المواقف والممارسات الخاطئة التي ظهرت في هذه الأحداث وتفسيرها وطرق مواجهتها.

الأمر الرابع: التليس والتضليل الشديدان اللذان يمارسهما إعلام الكفار والمنافقين، مستغلين ضغط هذه الأحداث في إضلال الناس وحرفهم عن الصراط المستقيم، مستخدمين في ذلك وسائل الإعلام المختلفة في إثارة الشبهات والحرب النفسية الموجهة للمسلمين، ليوقعوهم في مزيد من الإحباط والهزيمة النفسية، وسعيهم في زعزعة الثوابت وأصول الاعتقاد في نفوس الناس، حتى أصبحنا نفاجأ بتغيرات في المفاهيم والمواقف عند كثير من الناس، فكان لزاماً على كل مقتدر من أهل العلم وطلابه مواجهة هذا التليس وكشفه عن الناس ورد شبهات المشبهين وضلالات المضلين.

الأمر الخامس: الحاجة إلى بيان أسباب النصر وأصول التمكين، وبيان أسباب الهزيمة وإدالة الأعداء، والحكمة من تأخير النصر على المسلمين، لأن في خفاء ذلك ثور الوسائس والشبهات. وبالعلم بها تطمئن النفوس المؤمنة، وتسعى للأخذ بالأسباب الشرعية والسنن الكونية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه، وألهم الرسول ﷺ للأخذ بها في طلب النصر والتمكين لهذا الدين.

ولأجل هذه الأسباب والدوافع وغيرها أكتب هذه الرسالة إبراءً للذمة ونصحاً للأمة، وجهاداً ودفعاً بالكلمة، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم، ونافعة لي ولإخواني المسلمين.

ويمكن تقسيم الكتاب إلى الفصول الآتية:

الفصل الأول: ذكر بعض الآيات الدالة على حتمية الصراع بين الحق والباطل والحكمة من ذلك.

الفصل الثاني: أنواع الغزو الذي يتعرض له المسلمون اليوم في بلدانهم.

الفصل الثالث: اختلاف المواقف من غزو الأعداء وصوره المختلفة.

الفصل الرابع: الموقف الحق في صد هذا الغزو والعدوان.

الفصل الخامس: تنبيهات مهمة لا بد منها.

الخاتمة

